عماد مغنية... حكايات تنشر للمرة الأولى

وكالة تسنيم الإخبارية

2016.02.15

يصعب إقناع أحد بأن هناك أموراً لا يمكن كتابتها، عن مشاعر راودتنا، ونحن نقرأ عماد مغنية في شهادات من عرفوه، تأتي حكاياته كغيمة مرت فروَت. و نسأل، كمن يحوم حول سرّ: «هل كان عماد مغنية حقيقة؟»، و ليس صعباً أن نؤكد، أن الحكاية ولو رويت لن تنتهي، ما دامت الحياة تعدنا، عاماً تلو آخر، بكشف المزيد عن حياة شهيد عزَّ نظيرُه، لذا، لن تكون الحكاية كاملة، لكن عساها تروي قليلاً من شوق كثيرين آمنوا به، وصدَّقوا دمه ودموعهم، وأيقنوا أنه، من دوننا جميعاً، أتقن الحب... والشهادة.

تعود الذاكرة بالحاجة أم عماد إلى العام 1962. تسرد الحادثة بتفاصيلها: سارت بهم السيارة التى تضمّ سبعة أشخاص، على طريق المصيلح، و كان عمر عماد مغنية يناهز الـ 40 يوماً. تعرّضوا لحادث، انقلبت بهم السيارة ثم احترقت، ونجوا من الموت بأعجوبة. «كلكم نجيتوا؟» سأل جدّها. ثم أجاب نفسه: «كلكم نجيتوا بحسنة هذا الطفل. هيدا الطفل بدو يطلع منه شى كتير مهم بالحياة».

منذ سمعت أم عماد هذه العبارة، راحت تترّقب اليوم الذى يصبح فيه ابنها صاحب شأن فى المجتمع. مرّت الأيام، والسنون، وظهرت شخصية عماد صاحب القدرة على التأثير على الآخرين من دون أن يتعمّد ذلك. «منذ كان فى السادسة من عمره، كان يتحمّل مسؤولية رفاقه الذين يلعب معهم»، يقول والده. كما كان قادراً على المسامحة منذ صغره « اختلف مرة مع ابن جيراننا، الذى اعتدى عليه، لكن عماد قال له اللّه يسامحك ومشى، وتضايق من شقيقه فؤاد لأنه عاد وضرب ابن الجيران قائلاً له: ما انا سامحته».

شبّ عماد مغنية فى بلد يعانى من اعتداءات اسرائيلية متواصلة، و بدايات حرب أهلية، وكان مهتماً بمتابعة مجريات الحياة السياسية. يروى صديقه الشيخ مالك وهبى أنهما كانا فى العاشرة من العمر، عندما كان الحاج عماد يحاول أن يتعرّف إلى الأحزاب والحركات السياسية والإسلامية. وعندما كان يرى ما لا يعجبه، يدخل ويناقش. وكان فى السادسة عشرة من عمره عندما انضمّ إلى حركة «فتح»، واستطاع أن يكون مؤثراً فيها على مجموعة من الشبّان رغم صغر سنه. وفى بداية الثمانينيات، التحق بالحركة الإسلامية. كان لإنتصار الثورة الإسلامية فى إيران عام 1979 واستشهاد السيد باقر محمد الصدر عام 1980، دور حاسم فى هذا الخيار. شارك وساهم مع بعض إخوانه فى تأسيس حركة جهادية إسلامية بعدما اقتنعوا بأنه لا بد أن تكون لديهم قدرة دفاعية. وقد تشكلت هذه القدرة، التى واجهت الاجتياح

«الاسرائيلى»، إذ شارك هو بشخصه، مع بعض رفاقه المؤسسين، فى التصدى لـ«الإسرائيليين» فى معركة خلدة. هذه كانت نواة المقاومة الإسلامية فى لبنان، وعندما دعا قائد الثورة الإسلامية فى إيران الإمام الخمينى للجهاد، كان حزب اللّه من الحاضرين والفاعلين.

فى ذلك الوقت، كان يطلق على شبان حزب اللّه «الخمينيين». وكان عماد، وشقيقاه جهاد وفؤاد، من هؤلاء الخمينيين. كانوا ملاحقين على الدوام، كما تروى والدتهم التى دُهم منزلها اكثر من مرة، من دون أن يصادف وجود أولادها فيه.

رغم هذا الجو من الملاحقة، سار الحاج عماد فى تشييع شقيقه جهاد الذى استشهد عام 1984. وهذا ما لم يفعله مع استشهاد فؤاد فى العام 1994، كى لا يصل إليه «الاسرائيليون». وبعد 4 أيام من استشهاد فؤاد، التقى بوالدته. قال لها: «قالولى انك متأثرة كتير». أجابت: «طبعاً، هيدا التانى»، فأجابها: «كيف ليصيروا 3، شو بدك تعملى»؟

مرّ العمر بسرعة، قبل أن تتلقى أم عماد خبر استشهاد ابنها الثالث. لكن، ليس من دون إنجازات، بل تواقيع حفرت فى ذاكرة العالم، كان أبرزها تحرير الجنوب فى أيار 2000، وانتصار تموز 2006.

تتذكر أم عماد أنه زارها بعد التحرير بفترة، وسار وعائلته الى الجنوب. كان هو السائق، بين أهله، أخواته، وأولادهم. يسير ويشرح: «هيدا الموقع الفلانى... وهون هيك صار...». سألته: «أنت شو خصك بهذه القصة؟ من وين عارف هذه المواقع؟». ضحك، وقال: «جابونى وفرجونى عليهم، ودلّونى».

لم يخبرها أنه فى أول أيام التحرير، كان من أوائل الذين دخلوا إلى الشريط الحدودى، وفور وصوله الى الجنوب، ومن على تخوم قرية مركبا، قال للشاب المرافق له: «شمّيت ريح فلسطين، ريح القدس». ثم تقدّم ونظر إلى فلسطين: ««الإسرائيليون» بالمرة ! كيف تركونا نصل إلى هذه النقطة؟».

يومها، تشكلت لديه قناعة بأن هناك إمكانية حقيقية لإزالة «إسرائيل»، بناء على أن المقاومة نجحت فى مهمتها الأولى، وهى رؤية الهزيمة بعينى «الإسرائيلى». ويومها، أيضاً، أدرك أن «إسرائيل» لن تتحمل الهزيمة، وأن العمل على الردّ قد بدأ.

ننتصر لأننا نبتكر

قبل بدء حرب تموز، كان الحاج عماد قد وضع تصوّراً لما قد يحصل فى حال وقعت الحرب. ويذكر نائب الأمين العام لحزب اللّه، الشيخ نعيم قاسم، أنه عرض هذا التصوّر فى جلسة لمجلس الشورى، كما عرض مخططه للردّ. قال لهم، «فى البدء، «اسرائيل» ستتقدم الى العوارض الأمامية، وستؤجل العملية البرية لوقت متأخر. ورغم ذلك، وإذا ما قامت بها، لدينا حلول للمواجهة»، وذكر هذه الحلول. عندما بدأت الحرب، تبيّن أنه يسبق العدو فى تفكيره. كلما تقدمت الحرب فى تموز، كانت الخطط التى ذكرها الحاج عماد، المواجهة وطريقة المواجهة والاستعدادات تتم مثلما نصَّها هو. كل ما كان متوقعاً فى عدوان تموز كان جزءا من الخطط المدروسة والموضوع لها حلول معينة.

الحاج رضوان، الذى اهتم بفهم «الاسرائيلى» وقراءته، لم يكن مقلّداً فى موضوع الخطط

العسكرية، إنما كان مبتكراً. هذا ما يميزه عن قادة وخبراء عسكريين آخرين. نقل عنه قوله: «ننتصر لأننا نبتكر». فى الحرب، ركز على ضرورة ضرب منطقة العدو. أى أن تتم مواجهة العدوان من خلال جعل الجبهة الداخلية فى فلسطين المحتلة مشتعلة، ما سيحقق انجازاً كبيراً للمقاومة.

كانت «اسرائيل» تملك بنك أهداف للمنظومة الصاروخية الإستراتيجية التى تتشكل من صواريخ لمدى متوسط، ومدى بعيد. بعد عملية جوية ضخمة ظنّ «الإسرائيلى» أنه أزال التهديد الصاروخى، وبالتالى أصبح أمام معركة ثانية، ليأخذ على أساس هذه المعطيات قراراً بتحويل العملية العسكرية إلى حرب.

أيام قليلة مرّت، وتبيّن أن الحاج كانت لديه خطة للحفاظ على غالبية القوة الصاروخية. وعندما انطلقت هذه الصواريخ باتجاه فلسطين المحتلة، قال لمن كان يقف إلى جانبه: «لقد خسرت «اسرائيل» الحرب». و أضاف فى موضع آخر: «حرب الـ 33 يوماً، أثبتت أن الأسلحة التقليدية عاجزة عن حماية «اسرائيل»، وأنها ليست خطراً علينا، وأن لدينا تفوقاً فى الأسلحة التقليدية، وهذا ما يقلّل من قيمة الدور «الإسرائيلى» فى استراتيجية الحرب. ربحنا القضية كلها. بهذه القضية يمكن إبادة «اسرائيل»».

فى المقابل، كان هذا الرجل، الذى بات يعرف بقائد الانتصارين، شخصية رقيقة وحساسة وعطوفة. هو الذى انهمرت دموعه عام 1998 عندما رأى، من على أحد الأسطح القريبة، مشهد تشييع جثامين الشهداء إثر عملية تبادل مع العدو. كان حريصاً على أن لا ينقص المجاهدين شىء من احتياجاتهم. أن لا يشعروا بالقلق، لا على أولادهم، أو مدارسهم أو أكلهم وشربهم. منطلقاً من مبدأ أنه يطلب منهم ما يصعب على الجميع، ولذلك، كان يرى أن واجبه يحتّم عليه أن يؤمن ما يستطيع تأمينه لهم، ويسعى للحصول على إيرادات لتأمينها. اهتم بالأمور الشخصية للذين حوله، وورد عن عدة أشخاص قولهم: «انا الحمد لله انتقلت الى بيتى بسبب الحاج عماد»، «أنا حليت مشكلتى مع ابنى بسبب الحاج عماد»...

القائد العطوف

كما يروى أحد المجاهدين، انه جمعهم ذات يوم، «وكنا 15 شخصاً، ليذهب بنا الى دمشق. أعطانا مالاً، وقال اذهبوا واشتروا ما يحتاجه أبناؤكم. جلس على الرصيف ينتظرنا، وبقى جالساً حتى عدنا جميعاً لنجده فى المكان نفسه».

هذا الحسّ الإنسانى العالى يعود الى التربية الأخلاقية والايمانية. إذ كان الحاج عماد متديّناً، يواظب على الصلاة فى أول وقتها. ويهمه أن لا تتضارب مواعيد الإجتماعات مع مواقيت الصلاة.

وفى الاجتماعات، لم يكن القائد العسكرى الذى يحتاج عناصره إلى تراتبية للحديث معه. لا «سيدنا» هنا، ولا أى كلمة تعيق التواصل بشكله البسيط المتعارف عليه. يمكن للجميع مناقشة الاقتراحات، ولا يجب على أحد أن يقف حين دخوله، أو يصمت حين يتكلم. كان شخصاً يحفّز الفريق الذى يعمل معه، معزّزاً المبادرة لديه، وروح التعاون، ليستخلص من الجميع ما يمكن استخلاصه.

قوة السرّ

كان عماد مغنية يدير هذه المهمات كلها بسرّية كاملة تحيط بشخصيته الحقيقية، حتى أنه طلب شخصياً من السيد حسن نصرالله نفى وجود أحد ما، إسمه عماد مغنية، داخل جسم حزب اللّه. و قد سُئل السيّد حسن فعلاً عن مغنية، فى إحدى مقابلاته القديمة. كان الحاج يشاهده، ضحك وقال: «إن شاء اللّه ما يتلبك السيد بالجواب». لكن السيّد أجاب: «ليس لدينا شخص بهذا الاسم».

وسأله ابنه مصطفى يوماً: «ماذا إذا لم يعترف حزب اللّه بك بعد استشهادك» ؟ أجابه: «لا أنتظر أحداً أن يعترف بى. إذا كانت هناك مصلحة لهم بعدم الإعتراف، فلا مشكلة».

لم تعنه على الإطلاق مسألة شهرته والكلام عن أعماله، سلباً أم إيجاباً، من محبيه أو خصومه، لبنانيين وعرباً و«إسرائيليين» أو أميركيين. بل كان يزعجه ربط «الإسرائيليين» كل أعمال المقاومة به، كأنه يعمل دون مؤسسة تفكر وتخطط وتضع أهدافاً. قاد عماد مغنية لسنة أو سنتين عمليات المقاومة، من دون أن تعرف المقاومة نفسها. وهو الذى أعدّ عملية الاستشهادى أحمد قصير بتفاصيلها، وتابعها بدقائقها، وحرص على تصويرها من أجل أن تكون هناك وثيقة تعرض فى يوم من الأيام وتبيّن هذا العمل بشكل كبير.

أقوى نقاطه فى الإجراءات الأمنية كانت عدم معرفته عند رؤيته، ما اقتضى منه إجراءات تجعله رجلاً عادياً وبسيطاً، من دون مواكب ومرافقين وإجراءات ظاهرة للعلن. أحياناً، كان يشارك فى لقاءات رسمية وعامة، لكن ليس بصفته التنظيمية، بل مجرد شخص كبقية الأشخاص، يجلس ولا يساهم فى النقاش بل يسمع. تحوّلت هذه الإجراءات إلى نمط وسلوك فى حياته.

أثناء لقاء قائد فيلق القدس، قاسم سليمانى، بمعاون نائب رئيس الجمهورية السورى الراحل اللواء محمد ناصيف فى سوريا، حضر الحاج عماد مع الوفد المرافق للأول. مع سير الحديث، أخطأ المترجم فى نقل جملة من الفارسية الى العربية. صحّحها له الحاج عماد، وأكمل الحديث، على أنه شخص مساعد فى الوفد.

هذا الشخص «المجهول»، أتاح لعماد مغنية هوامش كبيرة فى الحركة التى يحرم منها آخرون فى مواقع مسؤولية عسكرية أو أمنية. على عكسهم، نجح هو بالدخول إلى أمكنة واحتفالات وفنادق وتظاهرات واجتماعات، استخدم سيارات أجرة وفانات. مع ذلك، كان دائماً يحمل مسدساً فى جعبته الجلدية البنية اللون. كما حافظ على قوته البدنية فى العقد الأخير من عمره. أثناء تدريب المجاهدين على عملية سحب جندى «إسرائيلى» من الآلية: فتح الباب بسرعة وبمهارة فائقة، ليسحب مجاهداً ضخماً بحجمه على مرتين مع كامل سلاحه وعتاده. يروى أحد المجاهدين المقربين أنه كان «يعطينا دروساً فى الدفاع الذاتى، وأثناء التدريب تعاملت مع مواجهته ببرودة على قاعدة أن الحاج قصير القامة نوعاً، وإذ بى أفاجأ بلياقة عالية وسرعة غير طبيعة وقوة عالية».

بين حجم المهام الموكلة اليه، و حجم الانجاز الذى حققه، وحجم الظهور لديه، يصف رئيس المجلس السياسى السيد ابراهيم الأمين السيد المشهد بالقول: «أننا أمام إنجازات كبرى وضخمة

مع ظهور صفر». فى طبيعة الإنسان، إذا ما حقق إنجازاً، تراوده نفسه لإظهار ذاته مع ما حققه، من خلال صورة، أو فيديو أو ما شابه، ليخلد أثره. مع الحاج عماد، كان الزمن فى صوره يبدو ثابتاً فى موضعه. أما إنجازاته، فتواصلت دون توقيع معلن. ثم يعقب: «لم يتصوّر الحاج مع إنجازه، بل على النقيض، أخذت صورة للإنجاز ولم تؤخذ صورة له مع انجازه».

هذا الزهد الذى تعامل فيه عماد مغنية مع إنجازاته، يعود أيضاً إلى كونه لم يتعامل يوماً مع «الاسرائيلى» باستخفاف. هو الملاحق منذ بداية التحاقه بالعمل المقاوم، لم يكن يقلل يوماً من قدراتهم وقوتهم. وبعد 25 عاماً من ملاحقتهم إياه، استطاعوا الوصول إليه، فى وقت كان يخطط فيه للمقاومة الفلسطينية، فى سوريا.

استشهد ساجداً

فى ساعاته الأخيرة، كان الحاج عماد يعقد جلسة مع الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامى رمضان عبداللّه شلَّح، وقائد القوة البرية التابعة للحرس الثورى الإيرانى العميد محمد باكبور. يروى الأخير أنهم تواعدوا على اللقاء عند منتصف الليل، بعد عقد عدة جلسات فى ذلك اليوم، لبحث مسألة تحسين ورفع مستوى قدرات حماس والجهاد الاسلامى العسكرية والأمنية.

دائمًا ما كان الحاج يتأخر عن مواعيده. يقول باكبور انه كان ينزعج كثيراً من هذه الإطالة. وكان يقرّر فى كلّ مرة أن يكون قاسياً مع الحاج فى المعاتبة، «لكن فى لحظة اللقاء، وبمجرد ان تنظر الى تلك الابتسامة، تستطيع تعقب أثر الطريق الجميل الذى سار عليه قلبه الراضى. ابتسامة خجولة بسيطة تمنح سكينة اختفت فى لحظة غفلة».

هذه المرة، لم يعاتبه. وقع الانفجار، وكان باكبور أول الواصلين إليه، ليجد عماد مغنية شهيداً، فى وضعية السجود.

هكذا رحل عماد مغنية، عن عالمنا، شهيداً كما كان يتوقع، وهو القائل: «من الخيانة أن أخاف الموت وأنا اطلب من إخوانى القيام بواجبهم الجهادى، بينما أنا متيقن أن بعضهم سيستشهدون. أضعف الإيمان أن ارتضى لنفسى ما ارتضيته لهم».

مفاوضات الأسرى

كان تحرير الأسرى من السجون «الاسرائيلية» هاجساً يشغل بال الشهيد عماد مغنية. ويروى مسؤول لجنة الإرتباط والتنسيق الحاج وفيق صفا أن محاولات كثيرة جرت فى فترة ما قبل التحرير لتنفيذ عمليات أسر لجنود «اسرائيليين»، نبادلهم بأسرى لبنانيين وفلسطينيين وعرب، واستشهد كثيرون فى هذه العمليات من دون أن يوفقوا. بعد التحرير، استمرّت المحاولات، ونجحت عملية الأسر فى مزارع شبعا. وفى الفترة بين عامى 2000 و2004، حصلت مفاوضات شاقة بين حزب اللّه و«إسرائيل» عبر الوسيط الألمانى لتبادل الأسرى. وكان الحاج عماد أحد قيادى عملية التفاوض. كما اتخذ ملف الطيار «الإسرائيلى» رون أراد حيّزاً كبيراً من اهتمامه، لما يمثله من فرصة لإطلاق سراح الأسرى. لذلك، شكل فريقاً خاصاً للبحث عن أراد وتقفى أثره، بين عامى 2004

و2006. وقد نجح بالحصول على بعض مقتنياته، مثل المظلة أو السلاح أو اللباس. أشياء بسيطة فاوضت المقاومة من خلالها، والثمن عند الحاج كان إنسانيا بحتاً.

لكن العملية الأساسية كانت فى العام 2006 لتحرير البقية. تمّت العملية، وانتهت الحرب. بعدها، فى أغلب اللقاءات ضمن المفاوضات، كان الحاج عماد، حسب صفا، يحضر دون أن يراه الفريق الآخر، وأحياناً كان من دون أن يكون حاضراً جسدياً، بل فى الظل، المكان الأنسب والأحب اليه.

شهادة الحاج فى شهر شباط أخّرت تنفيذ العملية، لتتم بعد عدة أشهر، و لتسمى على اسمه: «عملية الرضوان».